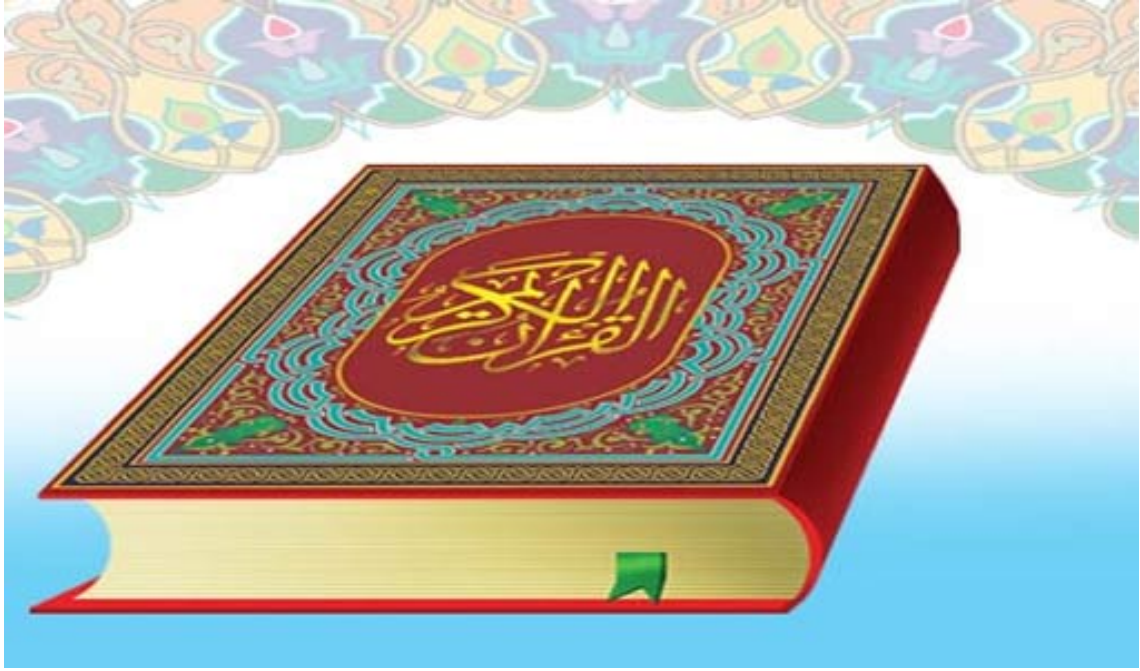


مصادر المعرفة السليمة كما بينها القرآن الكريم



يمكننا الاستفادة ممّا بيّنته الآيات القرآنية الكريمة عن الطرق الموصلة إلى المعرفة السليمة، التي لو اتّبعتها الإنسان لأمكنه أن يصل إلى لبّ الحقائق، ويهتدي إلى الصواب في كل مراتب المعرفة التي يقصدها. وهي الطرق التي احتجّ بها الله سبحانه على عباده كما تظهره الآيات الكريمة، لعلمه تعالى بما تنطوي عليه فطرة الإنسان وجبلته. ولابدّ من الإشارة إلى أن بعض مصادر المعرفة هذه متيسرة لكل إنسان يقصدها، وبعضها يحتاج إلى جهد خاص، فيما بعضها الآخر اختصّ الله تعالى به بعض عباده المخلصين. ونتناول في هذا الموضوع هذه المصادر المعرفية السليمة بشيء من الإيجاز. أوّلاً: المعارف التي تعتمد على الفطرة البشرية السليمة: للإنسان مدركات فطرية يصفها القرآن ويؤكد سلامتها وصحتها كطريق للمعرفة، فأصل الدين المودع لدى الإنسان هو أمر مطابق للفطرة وذلك سواء في تشريعاته وتنظيماته، أو في أساسه وهو الاعتقاد بواحد أوجد الوجود. ذلك أنّ لفطرة الإنسانية مدركات أولية وجدانية صحيحة حول توحيد الله تظهر عندما يكون الإنسان في حالة صفاء وتوازن داخليين، ولكن عندما تلوثه الذنوب المتراكمة والأفكار المنحرفة، تتأثر فطرته بذلك فيفقد الإنسان القدرة على المعرفة الوجدانية المباشرة التي تمتلكها الفطرة السليمة، وهذا ما يدل عليه الحديث الشريف المشهور "كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودونه وينصرانه..". إنّ الإنسان مخلوق أودع فيه نفحة من روح الله سبحانه، تستبطن هذه النفحة العلم، والادراك بوجوده تعالى ووحدانيته، ومن الآيات التي تطرقت إلى ذلك: (وَاللَّاتِ

رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّاهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (إبراهيم/ 101). فكأن معرفة □ مسألة فطرية، وكل شيء يدل عليه. وفي كل شيء له آية *** تدل على أنَّهُ واحدٌ كما يقول السبط الشهيد (ع) في دعاء عرفة: "متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بَعُدْتُ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميتُ عين لا تراك عليها رقيباً". وكما في قوله تعالى: (وَإِذَا غَشِيَهِمْ مَوِجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمْ يَنجَإَهُمْ إِلَى الْبِرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَدِرٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُفْلٌ خَتَّارٍ كَفُورٍ) (لقمان/ 32). وغيرهما من الآيات التي تتحدث عن توجه الإنسان بفطرته ولا شعورياً إلى □ إذا واجهه خطر ما، كما إذا ركب السفينة وغشيه الموج، وحالات النزع وسكرات الموت، كما يصف تعالى فرعون المتجبر أثناء نزعهِ: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْيَمِينَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا خَشْيَ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنْزَلَنِي إِلَهُ الْيَمِينِ آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ) (يونس/ 90). ثانياً: المنهج الاستقرائي (المنهج العلمي): وهو التعرف على الحقيقة من خلال الملاحظة والتجربة والمشاهدة، واستقراء الجزئيات واستنتاج ما يناسبها من حقائق غير ملموسة، وهو المنهج الذي تبنى عليه النظريات العلمية، وفي القرآن حثٌ على استخدام هذا المنهج للتعرف على سبل الإيمان ب□ وتوحيده وصفاته وبعض أصول الدين كما هو الحال مع الحقائق العلمية. ومن الآيات الدالة على ذلك: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران/ 190-191). إنَّ من يلاحظ الجزئيات المستقرأة في صنع عالم الأرض وكل الكون يرى الدقة والاتقان والترابط في كل جزء من السماوات والأرض بحيث لو كان أي خلل بسيط لاختل العالم، فلا يمكن أن يكون هذا الاتقان من غير مُتقن أو مدبر. وقد أثبت المفكر المرجع العلامة الصدر في كتابه (الأسس المنطقية للاستقراء) من خلال الدليل الاستقرائي، أن مبنى العلم والإيمان واحد، فالذي يؤمن بالعلمي لابد أن يؤمن ب□ والإيمان به، وهذا الدليل مقبول حتى عند من تلوّث فطرته. والآية القرآنية كذلك تؤكد وتبيّن هذا المعنى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ مِنْهُ نَخْلًا مِنْ ثَمَرَاتِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّ زَمَنَ الْخَلْقِ لِلَّهِ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر/

(27-28). إنَّ من يستقرء آيات القرآن سينتهي حتماً إلى الإيمان، وإن أكثر الناس خشية هم العلماء لعلمهم بدقائق التكوين والخلق أكثر، فمثلاً حينما كتب (داروين) كتاب (أصل الأنواع) استفهم القساوسة منه، أنَّهُ هل شكٌّ في القرآن، فأجاب بل ازددت يقيناً أكثر. (سَنُذَرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنْزَلَهُ الْحَقُّ...) (فصلت/ 53). ثالثاً: المنهج العقلي أو (القياس): يستفاد ذلك من بعض الآيات مثلاً الآية: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ) (الطور/ 35). فهي تثير العقل إلى أنَّهُ لابد لكل ممكن من خالق، فهي تستبطن قياساً، إما أن يكونوا خلقوا من غير شيء، وهذا غير معقول، وإما أن يكونوا هم الخالقين وهذا محال، للزومه التناقض، عندها سيتعين الاحتمال الثالث وهو كونهم مخلوقين من خالق. والآية: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...) (الأنبياء/ 22)، تفرض وجود إلهين مما يؤدي إلى فساد وبطلان الوجود، وهذا استنتاج عقلي يقول به الفلاسفة في اثبات وحدانية القرآن. وقوله تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس/ 78-79). والآية: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (النحل/ 20). رابعاً: الإدراك بالوحي: وهو مصدر راقٍ ورفيع من حيث أسلوبه ومنهجه، وهو بيد القرآن تعالى، والوحي ركيزة الديانات وهو مصدرها، وهو لا يختص بالأنبياء وحدهم، فلقد أوحى مثلاً إلى مريم (ع)، وهذا إشارة للوحي من ناحية منطقية كمصدر حقيقي سليم وصحيح للمعرفة، لا فلسفياً. ومن الآيات الدالة: (فَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا عَبْدُهُ مَا أَوْحَىٰ) (النجم/ 10)، فهي تشير إلى الإحياء، (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...) (فاطر/ 31)، والآية: (ذَلِكَ مِنْ أَنْزِيلِ الْغَيْبِ نُوْحِيهِ إِلَيْكَ...) (آل عمران/ 44). خامساً: الإدراك بالإلهام أو (الاشراق): وهو يوصل إلى المعرفة من غير استدلال منطقي، فيلقى في روع المرء فيدرك معارف وأشياء إدراكاً صحيحاً، والإلهام مصدر للمعرفة يمكن التعويل عليه، ويدعي أكثر الفلاسفة الإسلاميين أنَّ المؤمن إذا التزم بتعاليم القرآن سبحانه وتعالى وهذب نفسه، وجسد القيم الإلهية تصبح لديه شفافية خاصة، فتزول من أمامه الحجب المادية، وينكشف أمامه من حقائق الكون والغيب ما لا يشاهده الآخرون، ولنفس الإنسان القابلية على ذلك كلما تجردت من التعلقات المادية، ويقولون المعرفة الحسولية هي أولية والحقائق الملهمة تدرك بهذه الطريقة عند التقدم بالقرب من القرآن أكثر، وبدرجة عالية. فالمؤمن إذا اتقى يعطيه القرآن إشراقاً على عالم المادة كالأنبياء والأئمة (ع)، كقوله تعالى: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيًا بِذِكْرِهِمْ رَحْمَةً

مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (الكهف/ 65). والقرآن لم يقل
إِنَّهُ أُنْزِلَ الْوَحْيَ عَلَى الْخَضِرِ (ع)، بل ما كان لديه هو نوع من الإلهام، أو ما يسمّى بالعلم
(اللّٰدني) الذي يرتبط فيه الإنسان بعالم الغيب، والأئمة من أهل البيت والزهراء (ع) كان
علمهم وما أخذوه عن الرسول (ص) من هذا القبيل. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم عن
السامري أيضاً، قال تعالى: (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)
(طه/ 96). فقد حصل السامري على ذلك الاشراف من خلال تلك القبضة والتي ألقاها في فم العجل
فأصبح له خوار، (بغض النظر هنا عن انحراف السامري بعد حصوله على المعرفة اللدنية) وقال
تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مَرْيَمَ مَوْسَىَٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) (القصص/ 7). فالإحياء ليس
بارسال الوحي لها بل بالالهام. وكذلك آية اتخاذ النحل بيوتاً بالإحياء، وغيرها من الآيات
المتشابهة. فكل إنسان له بالقوة إمكانية الوصول إلى تلك المراتب ولكن الموانع والعوائق
كالذنوب تجعل له أثراً وضعياً بالتدني عن هذه المرتبة، فلو التزم بالمطلوب لأصبح له
اشراف واطلاع على عالم ما وراء المادة وذلك حينما يجسد الطاعة والعبودية لله تعالى.
المصدر: مجلة نور الإسلام/ العدد 47 لسنة 1994م